

انتصارات إسلامية

خطة ابن الزبير كانت مفتاح النصر في تونس

# معركة سبيطة.. المسلمون يهزمون 120 ألف جندي يقاتلون مع الملك جرجير

في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبالتحديد سنة 27 هجرية، وقعت معركة سبيطة بين جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن أبي السرح وجيش حاكم أفريقيا - تونس حاليا - جرجير، وفيها انتصر جيش المسلمين انتصاراً ساحقاً، وقتل جرجير وانتحرت ابنته. وتقع مدينة سبيطة - وردت في بعض الكتب باسم سفيطة - في وسط غربى تونس، وتبعد عن العاصمة بمقدار 264 كيلومتراً مربعاً شرق مركز بعد 33 كيلومتراً مربعاً شرق مركز ولاية القيصرين، ووردت سبيطة في كتاب «الروض المعطار في خبر الأقطار» كالتالي: هي مدينة قموذة، على سبعين ميلاً من القيروان، وقال عريب: على مسافة يومين من القيروان، وقال اليعقوبي: وهو بلد واسع فيه مدن وحصون، والمدينة القديمة العظمى هي التي يقال لها سبيطة.



وتعود بدايات تفكير المسلمين في فتح «سبيطة»، إلى بداية خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، عندما عزل عمرو بن العاص من ولاية مصر، وولى مكانه عبدالله بن سعد بن أبي السرح، فأراد الأخير أن يثبت للخليفة عثمان بن عفان أنه قادر على استكمال الفتوحات الإسلامية، فاستأذنه في غزو أفريقيا - تونس حالياً-، فأذن له عثمان بن عفان بعد مداوات عدة، وأمدّه بحملة عظيمة من مختلف بقاع الجزيرة العربية، واشترك فيها معظم القبائل الكبيرة وكبار العظام وأبناءهم، وبلغ عدد جنود جيش ابن أبي السرح نحو عشرين ألفاً.

طرق الصحراء

ومضى ابن أبي السرح بجيشه إلى

برقة بليبيا، وهناك لقي عقبة بن نافع، وقد جهز عقبة جيشاً من أهالي برقة لكي يضاف إلى جيش ابن أبي السرح، وبعد ذلك اجتمع عقبة مع ابن أبي السرح لوضع خطة لفتح سبيطة، ولما كان عقبة بن نافع على دراية واسعة بالأحوال البربرية ويعرف طرق الصحراء، بحكم إقامته في برقة لفترة طويلة، فقد أخبر ابن أبي السرح بأن جيش المسلمين سيواجه ملكاً قويا ومستبداً يدعى جرجير يوس - يطلق عليه اسم جرجير-، وكان هذا الملك يباهي كل الناس من طرابلس في ليبيا حتى مدينة طنجة في المغرب؛ لأنه استقل بحكمه عن إمبراطورية الروم، واتخذ من مدينة سبيطة عاصمة له، ونصح عقبة أمير

الجيش ابن أبي السرح بأنه يجب عليه عند فتح سبيطة عدم إقامة أي حملة جانبية حتى لا ينقض الروم والبربر عليهم فيقتلوهم ويستزفوا الجيش الإسلامي، ونصحه أيضاً بعدم فتح طرابلس أولى المدن التي سيمر عليها الجيش الإسلامي، ولما علم حاكم أفريقيا جرجيرس بخبر عزم المسلمين غزو بلاده، اجتمع بضباطه وجنوده، وخطب فيهم، مؤكداً ضرورة أن تكون نهاية العرب والمسلمين على يد أهل سبيطة، ومما أغرى أتباعه أنه خصص جائزة لمن يقتل عبد الله بن أبي السرح مقدارها ألف دينار وزواجه من ابنته، فتسارع الضباط على هذه الجائزة المغرية، وعندما علم عبد الله بن

سعد بالأمر استهزأ وسخر مما فعله جرجير، وخطب في المسلمين بأن من يقتل جرجير، فإنه سيعطيه ألف دينار ويوزع ابنة جرجير، وبهذا صارت ابنة جرجير معلقة بين المسلمين والروم، ولكن لم يكن هذا غاية المسلمين، إذ إنهم لم يرد واحد منهم الزواج من ابنة جرجير أو الحصول على ألف دينار وإنما كان هدفهم نشر دين الله في كل أرجاء الأرض.

الاستعداد للمعركة

واستعد جيش المسلمين للمعركة، وتوجه إلى سبيطة، ولم يفتحوها أي مدينة تقابلهم، كما أوصى عقبة حتى لا ينقض عليهم البربر والروم ويقضوا على الجيش



الصحابي ثابت بن قيس بن شماس أحد السابقين إلى الإسلام، كان خطيب النبي - صلى الله عليه وسلم - وخطيب الأنصار، وأحد الذين دعا لهم وبشرهم بالجنة في أكثر من موضع، ويضرب به المثل في الإيثار والشجاعة والإقدام.

ويقول الدكتور محمد متولي منصور - الأستاذ بجامعة الأزهر - هو ثابت بن قيس بن شماس بن زهير بن مالك بن امرئ القيس بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث وينتهي نسبة إلى الخزرج، وكنيته أبو محمد، وقيل أبو عبد الرحمن، وكان أحد السابقين إلى الإسلام في المدينة، إذ ما كاد يستمع إلى آيات الذكر الحكيم يرتلها مصعب بن عمير بصوته الشجي وجرسه الذي لما أرسله النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة يعلم المسلمون، حتى أسر القرآن سمعه بحلوة وقعه، وملك قلبه براع بيانه، فشرح الله تعالى صدره للإيمان وأسلم.

وكان ثابت بن قيس جهير الصوت، خطيباً، بليغاً تخرج من فمه الكلمات قوية، صادقة جامعة، وعن أسن قال: خطب ثابت بن قيس مقدم رسول الله المدينة، فقال: تمنعك مما تمنع منه أنفستنا وأولادنا، فما لنا؟ قال: «الجنة». قال: رضينا. وقيل إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - آخي بينه وبين عمار، وقيل بل المؤاخاة بين عمار وحذيفة.

السير والتراجم

اتخذته الرسول - صلى الله عليه وسلم - خطيباً، ويروى أنه في عام الوفود قدم وفد تمجيد على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبينهم عبدالله بن عيس اليماني ومسلمة بن هاران الحداني بعد فتح مكة، وافتخر خطيبهم بأمرور، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - لثابت بن قيس: «قم فأجب خطيبهم»، فقام فحمد الله وأبلى، وسر رسول الله - عليه الصلاة والسلام - والمسلمون بحقائه. فأسلموا، وبايعوا على قومه، وكتب لهم كتاباً بما فرض عليهم من الصدقة في أموالهم، كتبه ثابت بن قيس بن شماس، وشهد فيه سعد بن معاذ ومحمد بن مسلمة رضي الله عنهم.

وذكرت كتب السير والتراجم أنه كان أحد كتاب القرآن الذين يدونون القرآن الكريم في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن حرص الناس على حفظ القرآن، كما كان ممن جمعوا القرآن على عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعن محمد بن جرير بن يزيد: أن أشياخ أهل المدينة حدثوه، أن رسول الله قيل له: ألم تر أن ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح: قال: «فعله قرأ سورة البقرة»، فسئل ثابت، فقال: قرأت سورة البقرة.

صفاته

اشتهر بالورع والكرم والزهد والتقوى والشجاعة وشدة حبه للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولفضله ومناقبه بشره الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالجنة، وعن أبي قاسم الطبراني يسنده عن عطاء الخراساني قال: قدمت المدينة فسالته عن حديثي حديث ثابت بن قيس بن شماس، فأرشدوني إلى ابنته فسالته فقالت: سمعت أبي يقول لما أنزل على رسول الله: «إن الله لا يحب من مخالף فخره» «لقمان 18»، اشددت على ثابت بن قيس وأغلق عليه بابه، وظل يبكي فأخبر رسول الله فسأله فأخبره بما كبر عليه منها، فقال: أنا رجل أحب الجمال وأنا أسود قومي، فقال: «إنك لست منهم، بل تعيش بخير وتوت بخير، ويدخلك الله الجنة».

وكان من نجباء صحابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - المقربين في مجلسه يتفقدوه إذا غاب ويسأل عنه، ويعوذه من مرضه ويدعو له، ويروى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - دخل على ثابت بن قيس وهو مريض، فقال: «اكتشف لباس رب الناس عن ثابت بن قيس بن شماس»، ثم أخذ تراباً فجعله في قدح، ثم نفث عليه بماء وصبه عليه.

وعرف ثابت بن قيس بالإيثار وحب الإنفاق في سبيل الله، ويحكى أن رجلاً من المسلمين مكث صائماً ثلاثة أيام يصلي، فلما يجد ما يفرح فيصيح صائماً حتى فطن له ثابت بن قيس، فقال لأهله: إني سأعطي الليلة بضيف لي، فإذا وضعتم طعامكم، فليقم بعضكم إلى السراج كأنه يصلحه فيطهقه، ثم اضربوا بأيديكم إلى الطعام كأنكم تاكلون فلا تاكلوا حتى يشبع فيطهقه، فلما أمسى ذهب به فوضوا طعامهم فقامت امرأته إلى السراج كأنها تصلحه فأطاحت به ثم جعلوا يضربون أيديهم في الطعام كأنهم ياكلون ولا ياكلون حتى يشبع فيطهقه، وإنما كان طعامهم هو قوتهم، فلما أصبح ثابت غداً إلى رسول الله فقال: «يا ثابت لقد عجب الله البارحة منكم ومن ضيفكم»، فنزلت هذه الآية: «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» من يوق شح نفسه فالأولئك هم المفلحون «الحشر، 9».

بسالته

ظهرت بسالته وإقدامه في الجهاد في سبيل الله، فقد شهد أحداً وجميع المشاهد والغزوات بعدها وبيعة الرضوان، وكانت فدائيته من طران فريد تجلت عندما استنفر أبو بكر المسلمين إلى أهل الردة والبيعة وسيلمة الكذاب، كان ثابت بن قيس في صفوف الصوفى الأولى وطليعة المسلمين، فلما لقوا سيلمة وبني حذيفة تراجع المسلمون ثلاث مرات، فقال ثابت: ما هكذا كان نقاتل مع رسول الله فجعل لنفسه حفرة فدخل فيها فقاتل حتى قتل.

وفي رواية عن أسن بن مالك قال: كنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة فلما كان يوم البيعة كان فينا بعض الانكشاف من الناس، فجاء ثابت وقد تحنط وليس كفته، وقال: ما هكذا كنا نعمل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بش ما عودتم أقرانكم، فقاتل حتى قتل.

طليعة المسلمين في شهيد الصوفى الأولى

استشهد ثابت بن قيس - رحمه الله - يوم البيعة في خلافة أبي بكر سنة 12 هجرية، وأوصى بعد موته وجازت وصيته، فقد روي أنه بعد استشهاده مر به أحد المسلمين حديثي العهد بالإسلام، فأخذ درعه النفيسة فلما منه أنها من حقه. وبينما أحد المسلمين تأمّن أنها ثابت في منامه، فقال له: إني لما قتلت بالأسس مر بي رجل من المسلمين فانتزع مني درعا نفيسة ومنزله في أقصى العسكر وعند منزله فرس يسير في طوله وقد أكفا على الدرع برمة وجعل فوق البرمة رحلا، وانت خالد بن الوليد فطبعته إلى درعي فليأخذها، فإذا قدمت على خليفة رسول الله فاعلمه أن علي من الدين كذا ولي من المال كذا وفلان من رقيقي عتيق، وإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه، قال: فأتى خالد بن الوليد فوجه إلى الدرع فوجدها كما ذكر وقد علم على أبي بكر فأخبره، فأنفذ أبو بكر وصيته بعد موته، ولا تعلم أحداً جازت وصيته بعد موته إلا ثابت بن قيس بن شماس.

بلاد في القرآن

## بلدة كانت أرضها خصبة كثيرة الأشجار سدوم تحت مياه البحر الميت بعدما جعل الله عاليها سافلها

وقال العلماء: في قرية سدوم اكتشفوا أن بها الكيف الذي لجأ إليه لوط عليه السلام وبناته بعد العقاب الذي حل بمدنيتي سدوم وعمورة نتيجة اقتراف أهلها الفاحشة واللوام.

عادة سيئة

وقوم لوط كانوا يأتون الرجال دون النساء ومدبنتهم أو قريتهم تسمى سدوم، نصحهم سيدنا لوط كثيرا بأن يتركوا هذه العادة السيئة التي يهتز لها عرش الرحمن لكنهم يابون ويرفضون، وفي ليلة أتى إلى لوط رجلان جميلان وهما من الملائكة، هذه الكلمات تضح الصدود التقريبية لهذه المدينة وأن كانت جزئياتها لا تزال وراء ستار الإيهام.

بحيرة لوط ومن أكثر الخصائص الجيولوجية لبحيرة لوط، وذلك الدليل الذي يظهر واقعة الدمار كما رواها القرآن.

هناك قسم يشبه اللسان يشكل شبه جزيرة في شرقي بحيرة لوط، وهو يمتد داخل البحيرة وقد أطلق العرب على هذا القسم اسم «اللسان»، وهو يقسم قاع البحيرة تحت الماء إلى قسمين، ولا يبدو هذا ظاهرا للعيان فوق اليابسة.

قال سبحانه وتعالى: «ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين»، «سورة العنكبوت: الآية 31»، حيث أوضح الدكتور صبري عبد الرؤوف أستاذ الفقه بجامعة الأزهر أن هذه القرية التي ذكرت في الكتاب العزيز المقصود بها قرية سدوم، وهي القرية التي كان يعيش فيها نبي الله لوط عليه السلام. مدينة سدوم كما ذكر في كتاب تاريخ الأنبياء والرسل تقع في نطاق غور الأردن، وقيل أيضا إنها تقع تحت مياه البحر الميت وبالبحر الميت بقعة أسفلها العذب الأليم الذي أنزله الله تعالى على هؤلاء القوم وتسمى هذه البحيرة بحيرة لوط عليه السلام.

بحر محمد «القاهرة»، يرى بعض العلماء أن البحر الميت له بعض موجودا قبل هذا الحادث وإنما حدث من الزلزال الذي جعل عالي البلاد سافله وصارت تحت سطح البحر بنحو 392 مترا، وقد اكتشف الأثريون شيئا من هذه المدن المنكوبة على حافة البحر الميت.

وفي تفسير الآية، قال ابن كثير إنه لما استنصر لوط عليه السلام بالله عز وجل على قومه، بعث الله تعالى لنصرته ملائكة في صورة شبان حسان، فلما رآهم ذلك اغتم بأمرهم إن استضافهم خاف عليهم من قومه وإن لم يضيفهم خشي عليهم منهم ولم يعلم بأمرهم وقت دخولهم عليه، فقالوا له «لا تخف»، وذلك كان جبريل عليه السلام واقف على قراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم، وأرسل الله عليهم جحارة من سجليل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببيعد، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة مننته وجعلهم عبرة إلى يوم القيامة وهم من أشد الناس عذابا يوم المعباد.

العذاب الإلهي

«وسدوم» واحدة من مدن قوم لوط وأحيانهم التي كانت من بلاد الأردن على مقربة من البحر الميت. وكانت أرضها خصبة كثيرة الأشجار، إلا أن هذه الأرض بعد نزول العذاب الإلهي على هؤلاء الظالمين من قوم لوط قلب عليها سافلها وتهتمت مدنها وسميت المؤنكفات «أي المقلوبات»، وذهب بعضهم إلى أن آثار هذه المدينة الخريبة غرقت في الماء ويزعمون سكانها في هذه الأرض.



• آثار قرية سدوم حيث كان يعيش قوم لوط